Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 26:1-2 (1991



فتح الاندلس (اسبانيا) فى خلافة

سيدنا عثمان رضى الله عنه سنة ٢٧ للهجرة

محمد حميد الله

جرى على ألسنة العوام أن المسلمين فتحوا الاندلس فى سنة ٩٢ للهجرة فى زمن الخليفة عبدالملک بن مروان الاموى وأن طارق (الذى أعطى اسمه لجبل طارق "Gibraltar" وموسى بن نصير هما اللذان توليا أمره ولكن الحقيقة أن جنود المسلمين دخلوا فى الاندلس قبل ذلک بطويل، فى السنة ٢٧هـ . وبقوا هنالک ولم يخرجوا الى مجئ طارق .

وقبل ان نعطى التفاصيل وننقل الوثائق اللازمة ، لابد أن نذكر الوجوه والأسباب حسب الامكان، على أساس المعلومات التاريخية، لهذه الحروب والفتوح .

بدء الصـلات مع اوروبا :

بدأت صـلات الاسـلام مع أوروبا منذ العصر النبوى ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل امبراطور بيزنطة فى ابتداء

السنة ٧ هـ، مكتوبا يدعوه الى الاسلام ولم يرد به الا الخير له والسلم معه (١) . وكان هرقل حينئذ فى آسيا فتلقى السفير فى القدس (Aelia)، ولو كان في اوروبا، لذهب السفير الى العاصمة في اوروبا . ولما يئس النبى عليه السلام من اسلام الامبراطور ، كتب الى من دونه من كبار الولاة والموظفين، خاصة من العرب . ولما أسلم فروة بن عمرو عامل معان (وكان قبل نصرانيا) قتله هرقل وصلبه . ولما قتل أمير غسان (فى دمشق) سفير النبى عليه السلام خلاف جميع الحقوق الدولية والدبلوماسية ، وأرسل النبى عليه السلام جيشا للتأديب لم يتدخل الامبراطور الا للشر . فبدل أن يعاقب أمير غسان، أرسل مائة ألف من العساكر (التى كان جمعها للقتال مع ايران) لصيانته وصيانة الحدود . ولقى المسلمين فى مؤتة (أردن) وكان سببا للخسائر . فذهب النبى عليه السلام بنفسه الى تبوك (سنة ٩ هـ .) وكتب مرة أخرى الى الامبراطور يدعوه الى الاسلام والمصالحة وزاد : ,, ... والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية،، (راجع كتاب الاموال لأبى عبيد ، رقم ٥٥) . ولكن لم يقبله الامبراطور .

مضى سنة ونصف بين غزوة تبوك ووفاة النبى عليه السلام ولم تزد العلائق بين الاسلام والبيزنطيين الا توترا بحيث جمع النبى عليه السلام جيشا جديدا وأمر على فراش الموت ارساله الى بلاد غسان فى الفور . وأول شئ فعله أبوبكر بعد أن تولى مسئولية الخلافة كان ارساله هذا الجيش تحت اسامة بن زيد للتأديب . كان من المحتمل أن تبقى هذه السرية حادثة محلية لو سكت الامبراطور . ويظهر أنه لم يفعل ذلك ، بل غضب وجمع الجنود على الحدود وكانه بدء الغارات فى ديار الاسلام . فأرسل أبوبكر رضى الله عنه جيشا جديدا ففتح كالبرق الخاطف بلدة قيصارية (فى فلسطين) ولكن لم يرد مع ذلك

الحرب، فأرسل سفارة الى هرقل (٢) ـ وكأنهم أول من وطأ أرض اوروبا من المسلمين ـ ففاوضوا مع الامبراطور فى القسطنطينية لتحسين الروابط والصلح، ولكن لم يتيسر ذلک . وتقدمت جيوش الاسلام فى فلسطين وحاصرت دمشق عندما توفى أبوبكر فى السنة ١٣هـ وكما ذكر المستشرق الولنديزى دخويه de Goeje فى كتابه Memoire sur La Conquéte de la Syrie أن رعايا البيزنطينيين النصارى استقبلوا جيوش الاسلام لا كالفاتحين بل كالمنقذين من ظلم الامبراطور . وكما لاحظ هنرى لامنس Henri Lammens فى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة ,,سوريا،، ، لم يحتج المسلمون الى أن يحاربوا بل استولوا على جميع سوريا فى تنزّه عسكرى (Promenade militaire) .

خلافة عثمان (رضى الله عنه) :

ان الخليفة عمر رضى الله عنه، حاول أيضا الصلح وكان كثيرا ما يقول : لو كان بينى وبينهم جدار من نار (فلا يصلون الينا ولا نصل اليهم ويعيش كل واحد فى أمن وسلامة) . ولكن لم يرد الامبراطور ذلک . ودامت الحرب فى عصره وعصر سيدنا عثمان (رضى الله عنه) فتمكنوا من استنقاذ مصر وسوريا وأرمينيا وغير ذلک من جور البيزنطينيين .

ولا بأس أن أزيد ههنا (على أساس ما ذكره القسطلانى فى كتابه ارشاد السارى شرح صحيح البخارى ، ج ٧، ص ٤٤٨) أن عساكر المسلمين لما كانوا فى جوار ارض روم (أرزن روم، كما ذكره) حدث اختلاف شديد بين المسلمين فى قراءة بعض آيات القرآن فلما أخبر قائد الجيش الخليفة عثمان به، أمر بتدوين القرآن ونشره . وهكذا يكون أحيانا نتيجة الشر خيرا اذا أراد الله .

وقد اكره المسلمون أن يحاربوا فى نفس الوقت مع كبيرى العالم : الروم والفرس وانتهى أمر الفرس بسهولة وسرعة وبدأ مجوس ايران يعتنقون الاسلام يوما فيوما . أما الروم مع شدة هزيمتهم فى آسيا وافريقيا وجزائرهما، لم يزالوا يستعدون للقتال ويحاربون المسلمين بدل أن يصالحوا صلحا . فكما قبض المسلمون المدائن، (عاصمة الفرس) كالبرق الخاطف ، أراد سيدنا عثمان أن يستولى على القسطنطينية أيضاء حتى تنتهى الحرب فيأمن الناس . ولذلک أمر من جهة والى سوريا أن يرسل جيشا الى عاصمة بيزنطة من بر وبحر وكان قد احتل على قبرص قبل هذا، كما أمر من جهة أخرى والى افريقية (٣) (تونس) أن يدخل فى الاندلس ويسافر من هناک برا الى القسطنطينية فيلتقى الجيشان السورى والتونسى فى عاصمة الروم .

نجحت المحاولة جزئيا، ودخل المسلمون فى ٢٧هـ . فى ,,الاندلس والافرنجة،، كما سنذكر فيمايلى، ولم يسافر الجيش السورى الا فى سنة ٣٢، ثم مرة ثانية فى خلافة سيدنا معاويةؓ تحت قيادة ابنه يزيد . وكان اشترک فيه سيدنا أبو أيوب الانصارى (Eyup Sultan) أيضا.

ان فتح الاندلس فى سنة ٢٧هـ لايعرفه أكثر الناس حتى نسيه المسلمون أيضا . ولذلک لابأس بأن نذكرهم وننقل الوثائق ، والمستندات اللازمة :

١) تاريخ الطبرى ، وقائع سنة ٢٧هـ . ، ص ٢٨١٧ من طبعة (ليدن):

,,لما ولى عثمان ... أمّر العبدين (عبدالله بن نافع بن عبدالقيس، وعبدالله بن نافع بن الحصين الفهريين) على الجند ورماهما بالرجال، وسرحهما الى الاندلس . وامرهما وعبدالله بن سعد بالاجتماع على الأجل ...... وأرسل عثمان عبدالله بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبدالقيس من فورهما ذلک من افريقية (٤) الى الأندلس فأتيا من قبل

البحر . وكتب عثمان الى من انتدب من أهل الاندلس (كذا) :

,, ... أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس وانكم ان افتتحتموها (اى الاندلس) كنتم شركاء من يفتحها (أى القسطنطينية) فى الاجر . والسلام ,, .

فخرجوا ومعهم البربر . من برها وبحرها . ففتحها الله على المسلمين وافرنجة ، وازدادوا فى سلطان المسلمين مثل افريقية . فلما عزل عثمان عبد الله بن سعد ابى سرح ، صرف الى عمله (اى ولاية افريقية والاندلس) عبدالله بن نافع بن عبدالقيس ، وكان عليها. ورجع عبدالله بن سعد الى مصر . ولم يزل امر الاندلس كأمر افريقية حتى كان زمان هشام، فمنع البربر أرضهم . وبقى من فى الاندلس على حاله .

٢) الكامل لابن الاثير فى احوال السنة ٢٧ (ج، ١، ص ٧٢): لما افتتحت افريقية أمر عثمان عبدالله بن نافع بن الحصين، وعبدالله بن نافع بن عبدالقيس أن يسيرا الى الاندلس فأتيا من قبل البحر ، وكتب عثمان الى من انتدب معهما :

,,.... اما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس ، وانكم ان افتتحتموها كنتم شركاء من يفتحها (أى القسطنطينية) فى الاجر . والسلام ,, .

,,فخرجوا ومعهم البربر ، فأتوها من برها وبحرها . ففتح الله على المسلمين وزاد فى سلطان المسلمين مثل افريقية . ولما عزل عثمان عبدالله بن سعد عن افريقية ، ترك فى عمله عبدالله بن نافع بن عبدالقيس فكان عليها ورجع عبدالله (بن سعد) الى مصر ,, .

٣) تاريخ أبو الفداء (ج ١، ص ٢٦٢) :

,, وفى أيام عثمان فتحت افريقية . وكان المتولى لذلك عبدالله بن سعد بن أبى سرح المذكور. وبعث بالخميس (بالخمس ؟) الى عثمان .

فاشتراه مروان بن الحكم بخمس مائة ألف دينار . فوضعها عنه عثمان . وهذا من الامور التى أنكرت عليه (على عثمان) . ولما فتحت افريقية أمر عثمان عبدالله بن نافع بن الحصين أن يسير الى جهة الاندلس. فغزا تلك الجهة . وعاد عبدالله بن نافع الى افريقية فأقام بها من جهة عثمان ورجع عبدالله بن سعد الى مصر » .

٤) تاريخ الاسلام الكبير الذهبى (طبع مصر سنة ١٣٦٨هـ .) احوال السنة ٢٧، (ج ٢، ص ٨٠) :

,,روى سيف بن عمر من أشياخه أن عثمان أرسل عبدالله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع (بن عبدالقيس) الفهرى من فورهما الى الاندلس . فأتيا من قبل البحر . وكتب عثمان الى من انتدب الى الاندلس :

,,أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس وانكم ان افتتحتموها كنتم شركاء فتحها فى الاجر والسلامة» .

وعن كعب (الاحبار) قال : ,,يعبر البحر الى الاندلس أقوام يفتحونها كما يعرفون بنورهم يوم القيامة ، قال : فخرجوا اليها فأتوها من برها وبحرها ففتحها الله على المسلمين وزاد فى سلطان المسلمين مثل افريقية . ولم يزل أمراء ؟ (أمر) الاندلس كأمراء (أمر) أفريقية حتى أمر هشام فمنع البربر أرضهم » .

٥) البداية والنهاية لابن كثير (ج ٨، ص ١٥٢):

,,لما افتتحت افريقية بعث عثمان الى عبدالله بن نافع بن عبدالقيس ، وعبدالله بن نافع بن الحصين الفهريين من فورهما الى الاندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان الى الذين خرجوا اليها يقول : ,,ان القسطنطينية انما تفتح من قبل البحر وانتم اذا فتحتم الاندلس كنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الاجر آخر الزمان والسلام » . قال فساروا اليها فافتتحوها ولله الحمد والمنة » .

٦) وقد ذكره زينى دحلان فى كتابه , الفتوحات الاسلامية، (ج ١، ص ١٠٠) عن المصادر القديمة .

٧) ذكره Gibbon فى كتابـــه Decline and Fall of the Romen Empire طبعة Oxford University Press ج ٥، ص ٥٥٥ عن أبى الفداء ، ولكن غير عبارة ابى الفداء وبـدل ,,الفتـح،، و قال ,,غـارة،، أى لم يبـق المسلمون فى الاندلس .

فنرى من هذه الاقتباسات ان هناك اجماعا بين مؤرخى الاسلام على فتح قسم من الاندلس وديار الافرنج فى السنة ٢٧هـ . فى خلافة سيدنا عثمان وأن المسلمين بقوا هناك وما زالو الى أن جاء جيش طارق وكمل الفتح .

هــوامــش

١ - راجع للتفاصيل مقالتى :

La lettre du prophète a Heraclius et le sort de I'orginal (Cf. Arabica, Paris. 1955).

ومنذ نشر هذه المقالة عثروا على اصل المكتوب النبوى وهو الآن محفوظ فى عمان (اردن) .

٢ - راجع للتفاصيل مقالتى :

Une ambassade du calife Abu Bakr aupres de I'empereur Heraclius et le livre byzantin de la prediction des destinées (of Folia Orinetali, Krakov/Pologne, 1961).

الوثائق عن صور الأنبياء التى ذكرت فى هذه المقالة عن الدينورى والذهبى ، ذكرها ابن الجوزى فى الوفاء بأحوال المصطفى (ص ٢٢٧ ـ ٧٠١) عن موسى بن عقبة أيضا . ويزيد، أنه وقع مثله لدحية سفير النبى عليه السلام أيضا ورأى تلك الصور وفيها صورة نبى الاسلام عليه السلام أيضا (راجع ابن الجوزى ، ص ٧٢٦) .

٣ - يعنى شمالى افريقا من برقة الى طنجة (راجع ياقوت والبكرى) .

٤ - يعنى شمالى افريقا من برقة الى طنجة (راجع ياقوت والبكرى) .

★★★